حوليات آداب عين شمس المجلد ٥٠ (عدد إبريل – يونيو ٢٠٢٢)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

المرتكزات الأخلاقية في ثقافة المجتمع العراقي القديم في ضوء أدب الحكمة

عامر حمزة حسين الغريب*

كلية الاداب – جامعة بغداد
wafaaadnnan@yahoo.com

المستخلص:

يتناول هذا البحث دراسة أهم المرتكزات الأخلاقية التي كانت تؤلف جزءاً كبيراً من ثقافة المجتمع العراقي القديم، بالإستناد إلى ركن أساس من أركان البنية الثقافية لذلك المجتمع، وهو الأدب، بأبرز أنماطه، والمعروف، بـ(أدب الحكمة)، كنموذج لاقتفاء أثر الجانب القيمي والأخلاقي الذي نشأ عليه مجتمعنا العراقي القديم. وقد قسمنا البحث على محورين، المحور الأول: البنية الثقافية للمجتمع العراقي القديم، التي تألفت من أربعة أركان هي(١-الدين،٢-الأدب والفن،٣-العلوم والمـــعارف،٤-الأعراف والتقاليد والقوانين)،والمحور الثاني:القيم الأخلاقية المستقاة من أدب الحكمة .

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٢.

المقدمة:

شكّلَ الجانب الأخلاقي عنصراً أساسياً من عناصر البنى الثقافية لحضارات المجتمعات القديمة والمعاصرة على حدٍ سواء، وهو من العناصر ذات الحيوية والتجدد، لأنه لم يمت باختفاء الشعوب القديمة، بل ظل محفوظاً في الذاكرة الإنسانية، يجسد أقوى أسباب التواصل والاستقبال الحضاري، ومن هنا تولد اهتمامنا بهذا الموضوع، لكونه واحداً من الموضوعات التي تعالج وتجسد صفة الاطراد والتواتر في الظواهر الإنسانية، تلك الصفة التي تشكل أساسا لا يمكن إنكاره بالنسبة للعلوم الاجتماعية. فالسلوك الإنساني عبر الزمن يتكرر بنفس الصورة تقريباً. ويميل الناس في المجتمعات، القديمة والحديثة والمعاصرة، على السواء، الى الاتفاق أو التشابه فيما يصدر عنهم من سلوك في المواقف المختلفة .

يعد هذا البحث محاولة لإبراز أهمية العلوم الاجتماعية في بناء المجتمعات الإنسانية، وذلك من خلال استدعاء الذاكرة الحضارية وتوظيفها توظيفا علميا لاقتفاء أثر الجوانب الأخلاقية الكامنة في البنيان الثقافي للموروث التاريخي والحضاري للمجتمع العراقي القديم .

المحور الأول: البنية الثقافية للمجتمع العراقي القديم[١]

يعد المظهر الثقافي من ابرز مقومات الحضارة الإنسانية، لأنه يتصل بالتفكير والإنتاج العقلي، ويشمل الجوانب غير المادية كافة، والمتمثلة بالعقيدة الدينية، والقيم، والأفكار، والعادات والتقاليد، والأعراف، والأخلاق، والأذواق، واللغة وغيرها من الجوانب الأخرى التي يختص بها، منذ القدم، شعب معين عن غيره من الشعوب. ولقد كانت الثقافة تنمو وتتطور باستمرار، ومنذ البداية الأولى تبنى الإنسان الثقافة لحل مشكلاته، وتيسير أمور الحياة. وهذا يؤكد طبيعتها الخاصة[٢]، إذ إن الثقافة هي ثمرة كل نشاط إنساني نابع عن البيئة ومعبر عنها، أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك[٣]. ولهذا فإن البنية الثقافية للمجتمع العراقي القديم تتألف من مجموعة أركان، كلها وليدة البيئة والطبيعة العراقية ومعبرة عنها، ومن أهما:

أولاً: الدين

ساهم الفكر الديني في بلاد الرافدين بدعم الأخلاق بوسيلتين أساسيتين، وهما الأساطير[٤] والمحرمات؛ فقد تخلق الأساطير العقيدة بالقوى الخارقة للطبيعة بما يضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع أو الكهنة[٥] بقاءها، وكما تجعل الآمال والمخاوف السماوية الفرد يذعن لبعض القيود التي يفرضها عليه سادته أو جماعته. فالخوف من الآلهة، وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديما فأنشأ في نفسه الضمير[٦]، أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي قد لا تتفق وطبيعته، فأنظمة الملكية والزواج تتوقف الى حد ما على سند ديني، وتضعف قوتها في عصور الشك والإلحاد، وقد أدركت الحكومات أهمية الوازع الديني فاستغاثت به، ولهذا نجد أن كل القوانين العراقية القديمة بنيت على الوازع الديني. أما المحرمات فقد اكتسبت مكانة القوانين في البدايات الأولى لمدنية المجتمع العراقي القديم، وذلك من خلال الإعلان عن تحريم بعض الاشياء، بوصفها (مقدسة) لا يجوز التفوه بها أو لمسها، أو أفعال (مدنسة) لا يجوز اقترافها، ومنها القتل أو السرقة، أو الاعتداء الجنسي، وتحريمات أخرى تتعلق بالمرأة، وكل ذلك وغيره كان يلقن للناس عن طريق الديانة. ومن هذه التحريمات وأمثالها نشأ الحياء والشعور بالخطيئة والنظر الى العلاقة الجنسية غير المشروعة (الزنا) على أنها دنس ورجس، وتقدم لنا النصوص قوائم خطايا تدل على نوع من الاعتراف الصادر عن الانسان الذي كان يخضع لضرب من امتحان الضمير، وبتذكره الآثام فإنه يتخلص منها بشكل أو بآخر، وتبدو فكرة مسؤولية المرء جلية لدى تذكره آثامه، ولهذا نلحظ التساؤلات التي تعبر عن لسان حاله، ومنها:

"هل أرتكب المرء خطأ ضد إلهه؟
هل كان مقصراً بحق أبيه أو أمه؟
هل استعمل مكاييل وموازيين ناقصة؟
هل أرتكب جريمة ما، أو سرق، أو ساعد على السرقة؟" [٧]

كما راعى الفكر الديني في بلاد الرافدين قواعد السلوك التي توطدت بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وسعى دائما لإشاعة روح الفضيلة، والحفاظ على القيم القائمة أكثر من سعيه لخلق قيم جديدة، إذ كان الإنسان يشعر بأن الآلهة هي رمز للخير، كما في الترنيمة العراقية القديمة التي يقول فيها العراقي:

"ارفع عذاباتي
وسأغني بحمدك
لك قد صليت؛ اغفر لي حطيئتي
اغفر لي ذنبي، إجحافي
وأفعالي المخجلة واعتدائي

تجاوز عن أفعالي المخجلة"[٨] .

ونجد ترنيمة أخرى يقول فيها:

"كلمتك تجعل الحقيقة والعدالة موجودة
لكي ينطق الناس بالصدق"[٩]

ومن القضايا الاساسية في الفكر الديني عند العراقيين القدماء، أنهم اعتبروا مظاهر وفنون الحضارة من صنع الآلهة، أي أن ما يزخر به المجتمع من قيم ومفاهيم سواء كانت في نطاق النظم والعادات والفنون والصناعات، أم في نطاق الفكر والمعتقدات، فإن كلا منها كان يُخلق ويُنظم وفق قوة إلهية سماها السومريون (مي/ME) [١٠]، وقد وردت مفردات عدة، ضمن الجدول الذي أورده الكاتب السومري القديم، تدل على المبادئ الإنسانية، والقيم الاخلاقية ومن أهمها **(الاستقامة، فرح القلب، الصلاح والخير، العدالة، الحكمة، السلام)**[١١]، وهذا يدل على أن السومريين كانوا يقدرون ويعتزون بالخير والصدق والقانون والنظام والعدل والحرية والحكمة والمعرفة والإخلاص، وكل الفضائل والسجايا التي يرغب فيها الانسان، فضلا عن اعتزازهم بالرحمة والعطف، بدليل الإشارات العديدة للمعاملة الخاصة والحسنة لكل من الأرامل واليتامى واللاجئين والفقراء والمظلومين، تلك المعاملة التي وفرت لهم الحماية[١٢]، وضمنت لهم حقوقهم .

كما كان التدين يدعو إلى الوحدة الاجتماعية، إذ عملت وحدة الطقوس العبادية والدينية على التجمع حول المعبد وبناء نسيج اجتماعي مستقر إلى حد ما، لان إشاعة روح التعبد والتنظيم الديني كان يؤدي إلى بث روح الاحترام بين النسيج الاجتماعي من خلال توحيد طقوس الزواج والطلاق، ومعاملات البيع والشراء والمقاضاة، وغيرها من الطقوس الأخرى، فساهمت هذه العملية على ضبط أداء المجتمع، وأشاعت عند الناس نوعا من الطمأنينة والهدوء والاستقرار[١٣].

ثانياً: الأدب والفنون

يعد الأدب والفنون في المجتمع العراقي القديم، من التشكيلات الفنية الصرفة التي تعبر عن فكرة وشخصية معينة. ولهذا فهي تدخل في صلب ما يسمى بالثقافة، ويتضح ذلك من خلال أحد تعريفات الأدب، إذ يُعرَّف بأنه التعبير الفني عن فكر الإنسان وخوالج نفسه وتفاعلها مع نواحي الحياة المتعددة، في نفس الوقت الذي عُرِّف فيه الفن: أنه إبداع الجمال والتعبير عن الفكر والشعور بصورة تبدو جميلة تؤثر في النفس[١٤] .

يرى أغلب الباحثين أن الأدب نشأ في أولى مراحله على شكل ترانيم دينية وطلاسم سحرية يتلوها الكهان وتنتقل بالرواية الشفوية، وهذا ما جعله يبقى متوارثاً بين الأجيال يحظى بأهمية خاصة في تاريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الإنساني، وذلك إجماع لدى مؤرخي الحضارة الذين اتفقوا على عظم التراث الذي خلفه الأدب والفن في الحضارات القديمة الأخرى، والثقافات المعاصرة، فهو على ذلك لا يقتصر على كونه أدباً قديماً مثّل دورهُ في الفكر البشري ومات، بل إنه لا يزال حيا عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات الأخرى التالية[١٥].

تنوع الأدب في أنماط عدة، منها الأسطورة، والملحمة، والقصة الخرافية، والشعر، وأدب الحكمة، والرسائل، والتراتيل، والغزل وغيرها، وكل هذه الأنواع كانت تشكل جزءاً كبيراً من البنية الثقافية للمجتمع العراقي القديم، إذ كان الأدب بمثابة الوعاء الذي استوعب كل رؤى وطموحات الإنسان العراقي القديم، إلى جانب الفن الذي كان يلعب دور الأدب الصامت، ففيه عبر الإنسان عن نظرته للكون والحياة في قوالب تشكيلية فنية تحمل فكراً عميقاً يتحدث عن قصة الثقافة العراقية القديمة .

ثالثاً: العلوم والمعارف

انقسمت العلوم والمعارف منذ نشأتها ومرورا بمراحل تطورها إلى فئات وأنواع أهمها، العلوم الطبيعية، والرياضية، والفيزيائية، كما انقسمت إلى علوم نظرية، وعملية (تطبيقية)، ويبدو أن العلوم والمعارف كالآداب بدأت بالكهنة، واستمدت أصولها من المشاهد الفلكية التي كانت تحدد مواقيت المناسبات الدينية[١٦]، وحفظت في المعابد، ونقلت عبر الأجيال كجزء من التراث الديني. ومن هنا يتضح ارتباطها الوثيق بالحياة اليومية للمجتمع العراقي القديم الى الدرجة التي أصبحت فيها تشكل ركناً مهماً من ثقافة أفراده على اختلاف الأدوار التي مثلوها في هذا المضمار.

ومن أهم العلوم التي تعامل معها الإنسان العراقي القديم وأصبحت جزءاً من ثقافته الحياتية، **علم الفلك**، وما أتصل به من معتقدات تدور حول الآلهة، وما نتج عنه من مهنة **العرافة** التي مارسها مختصون ومنهم الكهنة، **وعلم الطب** الذي تعود جذوره الى **السحر** وما ارتبط به من فكر ديني جعله ينقسم الى (طب كهنوتي)، يختص به الكهنة، و(طب علمي)، يعتمد على التجربة والخبرة [١٧]، وكذلك المعارف والعلوم المتعلقة بالحرف اليدوية و**الصناعة**. ومن المعارف الأساسية الأخرى **الكتابة** التي اقتصرت في البداية على فئات محددة من المجتمع، ومن أبرزهم الكهنة، حتى نضجت وتطورت وأصبحت تدرس في المعابد لفئات أخرى[١٨]، وأصبح هناك موظفون هم الكتبة الذين يمارسون عملهم في مؤسسات تابعة للدولة، تنوعت بين اقتصادية وسياسية. إن المجتمع العراقي القديم

بما امتلكه من علوم ومعارف متنوعة صبت كلها في تكوين ثقافته المجتمعية، ساهم بشكل كبير في التأثير الحضاري على مجتمعات الشعوب الأخرى، وذلك من خلال تفعيل عوامل مختلفة للتواصل الحضاري، ومن أبرزها العامل الاقتصادي، والعامل السياسي.

رابعاً: الأعراف والتقاليد والقوانين

سبقت القوانين المدونة فترة اعتمد فيها المجتمع العراقي القديم على الأعراف والتقاليد في حسم المنازعات وتثبيت الحقوق. فالعرف هو أول مصدر من مصادر القانون، وهو عبارة عن مجموعة القواعد الأخلاقية التي يتبعها الناس دون أن يتدخل في ذلك نص صادر عن سلطان الدولة، بل يستمد قوته من اصطلاح الجماعة عليه. ويتضمن العرف عنصرين أساسيين، هما التلقين والتكرار ثم الإجبار. وعلى هذا فأن العرف هو إرادة الجماعة في تقرير سلوك معين لازم لحياتها تفرضه ضمنا على أعضائها وتكون مسؤولة عن إيقاع الجزاء على من يخالف العرف[١٩] .

مثّل العرف والأحكام الدينية البدايات الأولى لظهور القوانين المدونة في المجتمع العراقي القديم، وعُدَّتْ بحق أول تنظيم للمجتمع البدائي وظلت أساسا للقواعد القانونية التي اتبعها سكان بلاد الرافدين[٢٠]، وبظهور الكتابة دونت تلك الأحكام والقواعد بغية نشرها بين الناس لكي لا تحتكرها طائفة معينة تسيرها لمصالحها الخاصة، فضلاً عن أن تدوين القانون يؤدي الى احترامه لأنه يطبق على جميع الناس من دون استثناء ويضمن عدم تفسير النصوص وفقا لأهواء القائمين على تطبيقها، ويحفظها من الضياع والنسيان[٢١]. وكانت القوانين العراقية القديمة تتمحور حول فكرة العدل، ويعد الهدف الاسمى الذي ينبغي أن تكافح من أجل بلوغه، لأنه قبل كل شيء قيمة أخلاقية ترمي الى تحصيل الخير في الحياة من خلال تطبيق المساواة، أي إعطاء كل ذي حق حقه، أو وضع الشخص في موضعه الصحيح. والعدل من الخصائص التي يوصف بها الانسان، فيقال عن انسان ما، او عن المشرع او القاضي، أنه عادل او ظالم وفي هذا الاطار يعد العدل فضيلة اخلاقية[٢٢] .

المحور الثاني: القيم الأخلاقية المستقاة من أدب الحكمة

أدب الحكمة هو ضرب من ضروب الأدب العراقي القديم. ويشتمل على مواضيع شتى من الأدب السومري والبابلي، كالأمثال والمواعظ والقصص الهادفة إلى استخلاص الدروس والعبر من تجارب الماضين. وما تكنه من معان متنوعة تتعلق بالقيم والأخلاق والمُثُل العليا للحياة، إذ سعى العراقيون القدماء والباحثون المحدثون الى الخوض في تفاصيل هذا الجنس الأدبي، لكونه يعكس المفاهيم والمعتقدات الفكرية والروحية للمجتمع العراقي القديم، فخلفوا لنا تراثاً ضخماً من المدونات تسجل آراءهم بخصوص مجمل القضايا التي شغلت تفكيرهم عبر مسيرة تاريخية طويلة، وتعالج موضوعات لأنماط الحياة اليومية والسلوك الاجتماعي، فضلاً عن القيم والأخلاق[٢٣].

يرتبط النتاج الأدبي بمزاج، وطبيعة، وذوق أهله أو منتجيه، ولهذا فهو يختلف من شعب لآخر، ومن أديب لآخر. أي أنه شخصي ومحلي في الذوق والروح وإن تشابهت الموضوعات التي يطرحها الناظمون[٢٤]. ومن هنا جاء اختيارنا للأدب، لأنه بمثابة المرآة العاكسة التي تعكس الصورة الحقيقية للمجتمع العراقي القديم، لا سيما النمط الأدبي المسمى بـ (أدب الحكمة)، الذي يتضمن جملة من المعاني التي شكلت الثقافة الأخلاقية للإنسان العراقي القديم، ومنها (العلم، التفقه، العدل، الكلام الذي يوافق الحق، أو ما يوصف به الحكيم)[٢٥]. ونجد أن هذه الكلمات تشترك لتكون مصداقا لما ورد للحكمة من تعريفات كثيرة، ومنها أن الحكمة تعني الحكم العادل فيما يتعلق بالسلوك والفكر والتأمل، أو أنها تعني المعرفة والبصيرة وكتمان السر والذكاء، وهي مؤشرات لقدرات وقابليات متعددة تتعلق بالإنسان والأشياء[٢٦].

إن هذه التعريفات تنسجم انسجاما قويا مع المنظومة الخُلُقية التي تشكلت منها الثقافة المجتمعية القديمة .

أنماط أدب الحكمة: صُنّف أدب الحكمة الى أشكال متعددة تراوحت ما بين خمسة أصناف، إلى أحد عشر صنفاً، ومن أكثر أصناف أدب الحكمة شيوعاً هي:

١- **الأمثال:** وهي جمل قصيرة مقتضبة ومركزة المعنى، تعبر عن تجارب وحالات خاصة في حياة المجتمع، الكثير منها نشأ عن وقائع، أو حوادث قيلت فيها تلك الأمثال[٢٧]، وتعد الأمثال حقلاً واسعاً تنعكس عليه جميع أنواع تجارب الإنسان اليومية من خلال معايشته للحياة بجوانبها كافة، إذ تكمن أهمية المثل في فهم وإدراك تصورات الناس في عهود سابقة قديمة، اتصلت جميعها بالحياة اليومية. فهناك عددٌ كبيرٌ من الأمثال السومرية والاكدية وردت في النصوص الأدبية وبعض الرسائل، وهذا يشير الى كونها لعبت دورا مهما في ثقافة العراقي القديم وحياته اليومية. وكنموذج لأبرز الأمثال التي قيلت في مناسبات شتى وتداولها الناس، نعرض الآتي: **"أطع كلام أمك كأنه أمر إلهي"**[٢٨]. ويركز هذا المثل على قدسية طاعة الأم وإنزالها منزلة الإله في الطاعة. وهناك مثل آخر يشجع على التعاون والتكاتف من أجل إنجاز الأعمال العمرانية أو غيرها**" يد إلى يد يمكنها أن تتم بناء بيت المرء"**، ومثل آخر:**" ما أعطي بالذل يجلب العار"** [٢٩]. وينهى هذا المثل عن التفريط بالكرامة لقاء غاية نفعية مهما

كانت قيمتها، فلا قيمة لحياة مصحوبة بالذل والهوان[٣٠]. ومن الأمثال ما يحث على الفضيلة والصدق ومحاربة الكذب، **"إن كذبت مرة، وحتى لو صدقت بعد ذلك، فقولك كذب"**[٣١].

٢- **النصائح والحكم:** وهي سلسلة من الجمل البليغة ذات مضامين تشبه الأمثال، تحمل النصح والإرشاد حول السلوك الأخلاقي، ومن تلك الوصايا الأخلاقية ما قاله حكيم شروباك حوالي ألفين قبل الميلاد **"يا بني سأرشدك فأصغ لإرشادي، يا زيوسدرا سأقول لك كلمة فأصغ لها، ولا تهمل إرشادي، ولا تخالف الكلمة التي نطقت بها، نفذ إرشاد الوالد، الإرشاد القيم بإتقان"**[٣٢]. ويبين هذا النص بوضوح أهمية العلاقة المبنية على الاحترام والطاعة للأب من قبل الابن، وضرورة التمسك بإرشاداته ونصائحه، وهي قيمة أخلاقية عليا، وهناك الكثير من الوصايا والنصائح التي تشجع على التمسك بالصفات والأخلاق الحميدة ومنها،**"إن كنت حكيما فإن الحكمة تدعو للتواضع.إضبط فمك وراقب كلامك.إن شفتيك ثروة فلا تنطق إلا بالثمين"**[٣٣]، كما حملت كثير من النصائح قواعد فطنة للسلوك لا تنظر الى التقوى إلا بوصفها وسيلة إضافية على طريق النجاح، ومنها **"لا تفتر، بل قل كلمات صالحة، لا تتداول بأمور شريرة، ولا يكن لك سوى كلمات طيبة، فالذي يفتري ويقول كلمات شريرة سينتظر عبثاً مكافأة شمش"**[٣٤].

٣- **المناظرات:** يعد أدب المناظرة واحداً من أبرز ضروب أدب الحكمة وأشدها تأثيرا في النفوس، وأقواها صلة بالعواطف لما فيه من ترنيمات موسيقية خاصة، ويعتمد هذا الضرب من أدب الحكمة على الحوار المتناظر أو التفاخر بين شخصين يقابل أحدهما الآخر، ويحاول كل طرف منهما إظهار أفضليته على خصمه والنيل منه[٣٥]. وصلت إلينا شخوص تلك المناظرات متمثلة إما بأشكال بشرية، مثل**(الراعي والفلاح)**، أو بصيغ حيوانية، مثل**(الطير والسمك)**، أو نباتية مثل**(النخلة وشجرة الأثل)**، أو بين معدنين مثل**(الفضة والبرونز)**، أو ظاهرتين طبيعيتين مثل**(الصيف والشتاء)**، أو أداتين **(الفأس والمحراث)**، وغير ذلك[٣٦]. ويستشف من جميع أنواع المناظرات حرصها على إيصال أفكار تتعلق بالقيم والمبادئ الأخلاقية، باستخدامها الرموز، التي تختبئ خلفها الفكرة الرئيسة المراد إيصالها إلى المتلقي. ومثال على ذلك النمط من أدب الحكمة نسوق المناظرة الآتية التي تمثل حواراً بين زميلين، كما أطلق عليها **(المشاكسة الطلابية)**: [٣٧] .

- **"أنت أبله، مغفل، حشرة في المدرسة.**
- **أنت أمي، أنت جاهل سومري.**
- **فيدك ضعيفة، إنها لا تقدر على الإمساك بالقلم بصورة صحيحة.**
- **إنها لا تصلح للكتابة، ولا تقدر على كتابة الإملاء، ومع ذلك فإنك تدعي بأنك ناسخ مثلي .**

ويجيبه خصمه على هذا الكلام بقوله:

- **ماذا تقصد بقولك إنني لست كاتبا مثلك.**
- **أنت حينما تكتب وثيقة لا يُفهم منها شيء**
- **وعندما تكتب رسالة لا يمكن قراءتها .**
- **وعندما تذهب لتقسيم أرض زراعية لا تستطيع تقسيمها"**[٣٨] .

يستشف من هذه المحاورة المبنية على النقد المتبادل بين الزميلين، أن هناك سخرية من صفات غير محببة تؤدي الى التقييم الضعيف لمستوى كليهما في حال صدقت التهم المتبادلة بينهما، وهذا يمثل جانبا من القناعات التي بنيت عليها ثقافة الإنسان العراقي القديم .

٣- **المحاورات:** احتلت المحاورات مكانة مرموقة في أدب الحكمة، لكونها تطرقت إلى مسائل فكرية تتعلق بالإنسان وما تقدر له الآلهة من ثواب أو عقاب، أو ما يتعلق بأسباب النجاح أو الفشل في الحياة. وتنوعت موضوعات تلك المحاورات، التي أطلق عليها الباحثون. **(محاورات العدل الإلهي)**[٣٩]، والتي اهتمت بموضوعة الخير والشر في نظر الآلهة والبشر، إلى أنواع، منها ما حمل عنوان**(لأمتدحن رب الحكمة)**،أو**(التقي المعذب)**، أو غيرها من التسميات، كان مضمونها رجلاً تقياً عابداً مخلصاً للآلهة. وعلى الرغم من تعبده نزلت به الويلات والكوارث والأمراض والمصائب، إذ تركته الآلهة وحيدا، ثم نبذه الملك وحاشيته، وقد حار كثيرا في تفسير ما ألمَّ به من أمراض ونكبات، وفيما يأتي نقتبس بعضا من هذه المناجاة أو المحاورة الشعرية:

- **" لقد تخلى عني إلهي واختفى،وخذلتني آلهتي**
- **وابتعدت عني، وفارقني الملاك الصالح الذي كان يلازمني**
- **والروح حارستي لاذت بالفرار قاصدة غيري**

- **ذهبت قوتي ووهنت رجولتي، راحت هيبتي**
- **فأل مخيف يحدق من كل جانب، والملك اغتاظ قلبه مني ولم يهدأ**
- **ورجال الحاشية يتآمرون عليَّ**
- **لقد أجتمعوا فيما بينهم وقالوا بهتانا"** (٤٠).

فُسرت هذه المحاورة على ان الإنسان لا يدرك أبدا حكمة الآلهة من أعمالها وما تصنعه بالبشر، ومدى صبر الإنسان وقدرته على تحمل المصاعب والنكبات المسلطة عليه من قبل الآلهة، وقد كان هذا الرجل المبتلى صابرا مؤمنا بقدره الذي كُتب عليه، متمسكا بالآلهة التي منحته في النهاية الشفاء، وتنتهي المحاورة الشعرية بذهاب الرجل التقي المعذب إلى مدينة بابل قاصدا معبد الإله مردوخ ليقدم فروض الطاعة والعبادة والنذور والقرابين.

يبين هذا النمط من أنماط أدب الحكمة، أن التدين كان يرمي إلى إشاعة روح الفضيلة بين الناس، وكان الإنسان يشعر أن الآلهة هي رمز للخير، وهي حصنه وملجؤهُ، كما في الترتيلة الآتية:

- **"يا إلهي أريد أن أقف بين يديك**
- **أريد أن أكلمك.. وكلماتي أنين وحسرات**
- **أريد أن أعرض عليك أمري وأندب مرارة سبيلي"**(٤١) .

استنتاجات البحث:

توصل البحث في هذا الموضوع الى عدد من النتائج، أهمها:

١- تألفت البنية العقلية للمجتمع العراقي القديم من مجموعة أركان حضارية موروثة، شاركت جميعها في تكوين ثقافته، وأهمها(الدين، والأدب والفن، والعلوم والمعارف، والأعراف والتقاليد والقوانين).

٢- عالج أدب الحكمة بأنماطه المنوعة موضوعات شتى من الحياة اليومية، والسلوك الاجتماعي، فضلا عن مساهمته في إنضاج القيم والأخلاق، وقد عكس هذا الضرب من الأدب المفاهيم والمعتقدات الفكرية والروحية للمجتمع العراقي القديم.

٣- اصطبغت كل الأنماط الأدبية التي تضمنت القيم العليا في الأخلاق والمبادئ، بصبغة دينية كان الهدف من ورائها إشاعة نوع من الطمأنينة والهدوء والاستقرار، مما ساهم في تحقيق نوع من التوازن النفسي والعقلي على مستوى الفرد والمجتمع .

Abstract

Moral foundations in the culture of the ancient Iraqi society in the light of wisdom literature

By Amer Hamza Hussein Al-Gharib

This study deals with the study of the most important moral pillars which formed a large part of the culture of the ancient Iraqi society, Based on the cornerstone of the cultural structure of that society, which is literature, the most prominent patterns, known,(literature of wisdom),To trace the moral aspect on which our ancient Iraqi society grew up, We divided the search in two sections, The first is the cultural structure of the ancient Iraqi society, which consisted of four pillars:1- religion,2- literature and art, 3-science and knowledge,4- customs, traditions and laws The second: moral values derived from the literature of wisdom.

الهوامش

(١) – مصطلح العراق القديم: (ancient Iraq) أحدى التسميات التي أطلقها المختصون على البلاد الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، والمعروف اليوم بأسم (العراق). والذي يربط القارات التأريخية الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا بصورة غير مباشرة. وتقترن التسمية بكلمة (القديم)، عندما يُراد دراسة تاريخ ما قبل الميلاد. (وهو التاريخ الممتد من العصور الحجرية، أو عصور ما قبل التاريخ وحتى بدايات احداث التاريخ الميلادي تقريباً)، ومن التسميات الاخرى ايضا(بلاد الرافدين)، و(بلاد ما بين النهرين/Mesopotamia).أنظر:باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط٢،(دار الوراق، بيروت، ٢٠١٢)، ج١، ص٢٠ وما بعدها .

(٢) - هاولز،وليام، ما وراء التاريخ، ترجمة: د. أحمد ابو زيد،(دار النهضة،القاهرة، ١٩٦٥) ص٦٣.

(٣) - مؤنس،حسين،الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨)، ص ٣١٧ .

(٤) - الاساطير: ساهمت الاساطير الدينية (Mythology)، في رفد الجانب الاخلاقي والقيمي لمجتمع بلاد الرافدين القديمة من خلال العبر والمضامين الاخلاقية التي أحتوتها قصصها الممزوجة بالخيال وفي شتى موضوعات الحياة . أنظر: الجوراني، وداد، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، (دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ١٩٩٨)، ص ٢٥-٢٧ .

(٥) - الكهنة: لعب الكهنة دورا مميزاً في حياة المجتمع العراقي القديم لما لهم من مكانة اجتماعية عليا، إذ كانوا بمثابة الموجهين الاخلاقيين لأفراد المجتمع للابتعاد عن كل ما هو شر وما يضر بمصالح الناس، عن طريق تفعيل العقوبات التي اقرتها القوانين والاعراف العراقية القديمة. أنظر: حسين، ليث مجيد، الكاهن في العصر البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (قسم الاثار، كلية الاداب، بغداد، ١٩٩١)، ص ١٣ وما بعدها.

(٦) - حاطوم، نور الدين، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، دمشق، ١٩٦٤، ج١، ص٤٤ .

(٧) - روثن، مرغريت، علوم البابليين، ترجمة: د. يوسف حتي، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠)، ص ٥٤ .

(٨) - الوائلي،فيصل،ترانيم وأدعية سومرية وأكدية،مجلة سومر،العدد (١-٢)،(بغداد، ١٩٦٤)،ص٧٣.

(٩) – المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٠) – علي، فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، ط٢، (دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد ، ١٩٨٦)، ص ٦١ .

(١١) – كريمر، صموئيل نوح، السومريون أحوالهم عاداتهم تقاليدهم، ترجمة الدكتور فيصل الوائلي، (دار غريب للطباعة، الكويت، ١٩٧٣)، ص١٥٤.

(١٢) – المصدر نفسه، ص ٣٨٠ .

(١٣) - الخفاجي، مزهر محسن فرحان، خصائص الشخصية العراقية والمصرية في التاريخ القديم من خلال النتاج الفكري والفلسفي والأسطوري دراسة تاريخية مقارنة)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، ٢٠٠٣، ص ١٧٨ .

(١٤) - حاطوم، وآخرون، موجز الحضارة، ج١، ص٤٩- ٥٠ .

(١٥) - باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦)، ص ٣٩ .

(١٦) - حاطوم، وآخرون، موجز الحضارة، ج١، ص٤٩ .

(١٧) - تي بوتس، دانيال، حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة: كاظم سعد الدين، (مطبعة السجى، بغداد، ٢٠٠٦)، ص ٢٤٥ وما بعدها .

(١٨) – الفياض، أحمد لفتة محسن، تاريخ الكتابة في بلاد الرافدين منذ ظهورها حتى اختراع الابجدية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الاداب، بغداد، ٢٠٠٨)، ص ٨٢ وما بعدها

(١٩) - سليمان، عامر، القانون في العراق القديم دراسة تاريخية قانونية مقارنة، ط٢، (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧)، ص ١٣٩ .

(٢٠) - الحسيني، خالد موسى عبد، القانون وإدارة الدولة في وادي الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (الآداب، بغداد، ٢٠٠٢)، ص٤٥ .

(٢١) - أبو طالب، صوفي، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٤٣ .

(٢٢) - ذيبان، جمال مولود، تطور فكرة العدل في القوانين العراقية القديمة دراسة قانونية مقارنة، (دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد، ٢٠٠١)، ص ٢٤.

(٢٣) - الجبوري، صلاح سلمان رميض، أدب الحكمة في وادي الرافدين،(دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠)، ص ٦١ .

(٢٤) - مؤنس،حسين، الحضارة..، ص ٣١٧ .

(٢٥) - الجبوري، صلاح، أدب الحكمة...، ص ٦٣ .
(٢٦) - المصدر نفسه، ص٦٤ .
(٢٧) - باقر، طه، مقدمة في أدب...، ص ١٥٧ .
(٢٨) - علي، فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ط٢،(دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠)،ص ٢٦٩ .
(٢٩) - الجبوري، صلاح، أدب الحكمة..، ص٩٧ .
(٣٠) – المصدر نفسه،...، ص ٩٨ .
(٣١)- نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٣٢)-الجبوري، صلاح، أدب الحكمة، ص ١٠٩ وما بعدها .
(٣٣) – عيسى، ميثاق موسى، العلوم والمعارف في تاريخ العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الاداب، بغداد، ٢٠٠٦) ص١٤٤ .
(٣٤) – لابات، رينيه، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية، ترجمة: الاب البيرابونا ود. وليد الجادر،(مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨)، ص ٤٢١ .
(٣٥) – باقر، طه، مقدمة في أدب...، ص ١٦٢ وما بعدها .
(٣٦) - الجبوري، صلاح، أدب الحكمة...، ص ١٢٢ .
(٣٧) - نفس المصدر، ص ١٥٠ .
(٣٨) - نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٣٩) - نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٤٠) - عيسى، ميثاق موسى، العلوم...، ص ١٤٦، والجبوري، أدب الحكمة...، ص ١٧٨ .
(٤١) – كريمر، صموئيل،من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، (مكتبة المثنى، بغداد، ب-ت)، ص٢١١.

مصادر البحث :

١- أبو طالب، صوفي، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، (القاهرة، ١٩٧٨) .
٢- الجبوري، صلاح سلمان رميض، أدب الحكمة في وادي الرافدين،(دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠) .
٣- الجوراني، وداد، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، (دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ١٩٩٨) .
٤- الحسيني، خالد موسى عبد، القانون وإدارة الدولة في وادي الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (الآداب، بغداد، ٢٠٠٢) .
٥- الخفاجي، مزهر محسن فرحان، خصائص الشخصية العراقية والمصرية في التاريخ القديم من خلال النتاج الفكري والفلسفي والأسطوري دراسة تاريخية مقارنة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، ٢٠٠٣).
٦- الفياض، أحمد لفتة محسن، تاريخ الكتابة في بلاد الرافدين منذ ظهورها حتى اختراع الابجدية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الاداب، بغداد، ٢٠٠٨) .
٧- الوائلي، فيصل، ترانيم وأدعية سومرية وأكدية، مجلة سومر، العدد (١-٢)، (بغداد، ١٩٦٤)
٨- باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦).
٩- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط٢ (دار الوراق، بيروت، ٢٠١٢)، ج١
١٠- تي بوتس، دانيال، حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة: كاظم سعد الدين، (مطبعة السجى، بغداد، ٢٠٠٦) .
١١- حاطوم، نور الدين، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، دمشق، ١٩٦٤، ج١.
١٢- حسين، ليث مجيد، الكاهن في العصر البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (قسم الاثار، كلية الاداب، بغداد، ١٩٩١) .
١٣- ذيبان، جمال مولود، تطور فكرة العدل في القوانين العراقية القديمة دراسة قانونية مقارنة، (دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد، ٢٠٠١).
١٤- روثن، مرغريت، علوم البابليين، ترجمة: د. يوسف حتي، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠) .
١٥- سليمان، عامر، القانون في العراق القديم دراسة تاريخية قانونية مقارنة، ط٢، (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧) .
١٦- علي، فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ط٢،(دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠)
١٧- علي، فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، ط٢، (دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد ، ١٩٨٦)، ص ٦١
١٨- عيسى، ميثاق موسى، العلوم والمعارف في تاريخ العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الاداب، بغداد، ٢٠٠٦) .
١٩- كريمر، صموئيل نوح، السومريون أحوالهم عاداتهم تقاليدهم، ترجمة الدكتور فيصل الوائلي، (دار غريب للطباعة، الكويت، ١٩٧٣) .
٢٠- كريمر، صموئيل، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، (مكتبة المثنى، بغداد، ب-ت).
٢١- لابات، رينيه، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية، ترجمة: الاب البيرابونا ود. وليد الجادر،(مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨) .
٢٢- مؤنس،حسين، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٧٨) .
٢٣- هاولز،وليام، ما وراء التاريخ، ترجمة: د. أحمد ابو زيد،(دار النهضة،القاهرة، ١٩٦٥).